Scientific Journal
University of Saba Region
ISSN :2709- 2747 (Online)

المجلة العلمية
لجامعة إقليم سبأ
ISSN :2709- 2739 (Print)

"معالم إعداد الداعية في القرآن الكريم"

دراسة تحليلية لخطاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

Principles of Preparing the Islamic Preacher in the Glorious Quran: An Analytical Study of the Divine Discourse Addressed to His Prophet Mohammed (peace be upon him)

إبراهيم عبد الولي عبده البحري [1]
Ebrahim Abdul-Wali Abduh Al-Bahri

المجلد(8) العدد(2) ديسمبر 2025م
https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.129

(1) أستاذ التفسير المساعد في جامعة إقليم سبأ – جامعة إقليم سبأ
عنوان المراسلة : ebr714295265@gmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تقديم دراسة تفسيرية تحليلية لخطاب الله تعالى لنبيه محمد —صلى الله عليه وآله وسلم– في القرآن الكريم، بوصفه نموذجًا ربانيًا متكاملًا في إعداد الداعية. وقد اعتمد البحث على المنهج التحليلي التفسيري، من خلال استقراء الآيات التي وجّه الله فيها خطابه إلى نبيه الكريم، وتحليلها موضوعيًّا لاستنباط معالم الإعداد الإيماني التزكوي، والعلمي الفكري، والأخلاقي السلوكي. ويبيّن البحث أن هذه الخطابات القرآنية لم تكن توجيهات عابرة، بل مثلت منهجًا تربويًا متكاملًا، أُسّس عليه بناء شخصية النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن ثم فهي تمثل مرجعية قرآنية راسخة في تكوين الداعية.

وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يسلط الضوء على النص القرآني من زاوية بنائية وظيفية تفسيرية، تبرز أثر التوجيه الرباني في إعداد القدوة الدعوية، وتُسهم في بناء نموذج معاصر للداعية، يستمد أسسه من القرآن الكريم. كما يبرز البحث كيف يمكن للتفسير الموضوعي أن يكون أداة لفهم الخطاب الدعوي القرآني، وربطه بواقع الأمة وتحدياتها.

وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج، من أبرزها:

أن الخطاب القرآني الموجه للنبي —صلى الله عليه وآله وسلم– يشكل نموذجًا تفسيريًا عمليًا متكاملًا في إعداد الداعية، يجمع بين تزكية النفس وبناء المعرفة وتهذيب السلوك؛ وأن التفسير الموضوعي للآيات المتعلقة بإعداد النبي — صلى الله عليه وآله وسلم– يكشف عن رؤية قرآنية عميقة لبناء الشخصية الدعوية المؤثرة في واقع الأمة، كما خرج البحث بعددٍ من التوصيات، من أهمها: الدعوة إلى إدماج هذا النموذج التفسيري في برامج إعداد الدعاة ومقررات كليات الشريعة، والاهتمام بالدراسات التي تربط بين التفسير القرآني، والواقع التربوي والدعوي للأمة.

الكلمات المفتاحية:

التفسير الموضوعي، خطاب الله للنبي ﷺ، إعداد الداعية، القرآن الكريم، التربية الدعوية، الخطاب القرآني.

Abstract:

This study is aimed at presenting an exegetical and analytical exploration of the divine discourse addressed to the Prophet Muhammad ﷺ in the Glorious Qur'an, viewing it as a comprehensive divine model for the preparation of the Islamic preacher (da'iyah). The study adopts a thematic and analytical approach to exegesis (tafsir), examining and interpreting Qur'anic verses in which Allah directly addresses His Prophet ﷺ, in order to extract the foundational features of spiritual, intellectual, and ethical preparation. The study demonstrates that these divine directives were not incidental or isolated, but rather formed an integrated educational framework upon which the Prophet's character was built. As such, they constitute a firmly rooted Qur'anic reference for shaping the identity of the Islamic preacher. The significance of the study lies in the way that it sheds light on the Qur'anic text from a structural, functional, and exegetical perspective, which highlights the impact of divine guidance in shaping the exemplary prophetic model for da'wah, and contributes to formulating a contemporary framework for the Islamic preacher, grounded in the principles of the Glorious Qur'an. Furthermore, the study shows how thematic exegesis can serve as an effective tool for understanding Qur'anic da'wah discourse and linking it to the current realities and challenges of the Muslim community. The study reached several key findings, among which are: first, the Qur'anic discourse addressed to the Prophet ﷺ represents a practical and interpretive model for preacher development, combining self-purification, knowledge acquisition, and moral refinement; second, the thematic interpretation of verses related to the Prophet's formation reveals a profound Qur'anic vision for building an effective and balanced da'wah personality suited to the needs of the Muslim community. The study also presents several recommendations: first, encouraging integrating this exegetical model into training programs for Islamic preachers and curricula in faculties of Sharī'ah; second, encouraging further studies that connect Qur'anic exegesis with the educational and da'wah reality of the Muslim community.

Keywords: Thematic Exegesis (Tafsir), Divine Discourse to the Prophet ﷺ, Islamic Preacher Preparation, The Glorious Qur'an, Da'wah Education, Qur'anic Discourse..

Copyright: © 2025 Ebrahim Abdul-Wali Abduh Al-Bahri. This article is an open-access article distributed under the terms and conditions of Creative Commons Attribution (CC BY 4.0) license.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبيانًا لكل شيء، وجعله نورًا يهدي به من اتبع رضوانه سُبل السلام، والصلاة والسلام على مُعلِّم البشريَّة وسفير الرحمة، الذي تلَقَّى خطاب ربِّه فكان قرآنًا يمشي على الأرض.

أمَّا بعد:

فالدعوة إلى الله تعالى من أشرف المقامات وأجلّ المهام، وقد شرف الله بها أنبياءه ورسله، وكان خاتمهم محمدٌ –صلى الله عليه وآله وسلم، الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، ليقيم الحجة، وينذر الخلق، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى الله على بصيرة.

وقد تولى الله تعالى بنفسه إعداد نبيه محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– لهذه المهمة العظيمة، فزكّاه ووجهه، وأمره ونهاه، وأقام له منهجًا ربانيًا متكاملًا، يشمل الجوانب النفسية والإيمانية والعقلية والاجتماعية والبلاغية، ليكون النموذج الأكمل للداعية إلى الله.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث الموسوم بـ: "معالم إعداد الداعية في ضوء القرآن الكريم، دراسة تحليلية لخطاب الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– ليكشف عن المنهج الرباني في تشكيل شخصية الداعية، عبر استقراء النصوص القرآنية التي خوطب بها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في معرض الإعداد الدعوي، دون غيرها من جوانب الإعداد الأخرى، ليكون التحليل أضبط، والنتائج أوضح، ثم تحليلها تحليلًا علميًا موضوعيًا، باعتبارها معالم ربانية، وقواعد تأسيسية لإعداد الشخصية الدعوية المؤثرة، واستنباط خصائصها ومقاصدها عند علماء التفسير، في ضوء حاجة الدعاة المعاصرين إلى نماذج قرآنية راسخة يهتدون بها في طريق الدعوة.

ولكي يتحقق ذلك، فلابد من تسليط الضوء على الموضوع بطريقة علمية؛ عسى أن يسهم ذلك في النهوض والارتقاء بمهمة الدعوة إلى الله في هذا العصر المليء بالمتغيرات المتسارعة، حيث تتلاشى فيه القيم، وتضيع فيه الثوابت، ويشتد فيه الصراع على العقول والقلوب، وتعاد صياغة الإنسان من جديدٍ، عبر الإعلام والتقنيات الحديثة.

وسيعالج الباحث الموضوع من خلال مقدمة، ومبحثين، ثم الخاتمة، والله تعالى أسأل أن يمدني بعونه، وأن يجنبني فيه وفي غيره الزلل، وأن يحقق ما قصدته من القيام به، والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

مشكلة البحث:

رغم كثرة الدراسات التي تناولت الدعوة والداعية في ضوء القرآن الكريم، إلا أن الخطاب القرآني الموجه إلى النبي محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– بوصفه منهجًا ربانيًا لإعداد الداعية لا يزال بحاجة إلى دراسة تحليلية، تكشف عن معالم التكوين الذاتي للداعية، كما أرادها الله تعالى في كتابه، فتبرز مشكلة هذا البحث في التساؤل الآتي:

– كيف أعدّ الله تعالى نبيه محمدًا –صلى الله عليه وآله وسلم– للمهمة الدعوية، من خلال خطابه له في القرآن الكريم؟

- وما هي المعالم التي أرساها هذا الخطاب لتشكيل شخصية الداعية؟
- وهل يمكن استنباط نموذج قرآني معاصر لإعداد الداعية في ظل التحديات الفكرية والإعلامية الراهنة؟

أسباب اختيار البحث:

- أصالة الموضوع لكونه يتناول إعداد النبي- صلى الله عليه وسلم- بمنهج رباني مباشر، من خلال القرآن الكريم.
- الحاجة المعاصرة الملحة إلى نموذج قرآني يوجه الدعاة، في ظل التحديات الفكرية والإعلامية.
- قلة الدراسات المتخصصة التي عالجت خطاب الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من زاوية إعداد الداعية.
- اهتمام الباحث الشخصي بالجانب الدعوي والتربوي القرآني.
- قابلية نتائج البحث للتطبيق العملي في إعداد الدعاة وتكوين الشخصية الدعوية المتزنة.

أهمية البحث:

1. يُعد هذا البحث إسهامًا في حقل التفسير الموضوعي، حيث كشف عن بُعد تربوي متكامل في الخطاب القرآني المباشر لنبي الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أغفلته بعض الدراسات التفسيرية الجزئية.
2. يسلط الضوء على المنهج الرباني في إعداد أعظم داعية في التاريخ البشري، وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
3. يساعد على بناء نموذج قرآني متكامل؛ لتكوين الشخصية الدعوية.
4. يواكب الاحتياج العملي والتربوي في المؤسسات الدعوية والتأهيلية.
5. يعزز التأصيل القرآني لفن الدعوة، ويكشف معالم التوازن في شخصية الداعية.
6. يقدم إسهامًا علميًا أصيلًا في ربط الدعوة المعاصرة بالخطاب القرآني التربوي.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. تحليل خطاب الله تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- المتعلق بالدعوة إلى الله.
2. استنباط المعالم القرآنية التي أُعد بها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كداعية.
3. تقديم نموذج قرآني تطبيقي لإعداد الداعية المعاصر، في ضوء القرآن الكريم.
4. الإسهام في تطوير مناهج إعداد الدعاة وبرامج التأهيل الدعوي في ضوء القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم يُفرد موضوع خطاب الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بوصفه منهجًا لإعداد الداعية بدراسة مستقلة – في حدود اطلاع الباحث – وإن كانت هناك دراسات تناولت الجوانب التالية:

- دراسات عن إعداد الداعية في الإسلام بصورة عامة.

- أبحاث حول الصفات الدعوية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- .
- مؤلفات في فقه الدعوة، من خلال القرآن الكريم.

غير أن هذه الدراسات لم تتناول الخطاب القرآني المباشر للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كمنهج إعداد شامل، مما يبرز أصالة البحث وفرادته في هذا المجال.

منهج البحث:

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدمة: بينت فيها مشكلة البحث وأسباب الاختيار، والأهمية والأهداف، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وتمهيد: وفيه التعريف بمفردات العنوان.

- مفهوم إعداد الداعية.
- خطاب الله.

المبحث الأول: معالم الإعداد الإيماني والتزكوي.

المبحث الثاني: معالم الإعداد العلمي والفكري.

المبحث الثالث: معالم الإعداد الأخلاقي والسلوكي.

التمهيد:

أولًا: مفهوم إعداد الداعية:

إعداد الداعية لفظ مركب من مصطلحين، فسيتم التعريف اللغوي بكل مصطلح على حدة، ثم يتم التعريف بعد ذلك ب: "إعداد الداعية" محل البحث.

الإعداد في اللغة من أعد الشيء: أي جهّزه، حضّره، هيأه، كوّنه[1] ومنه قوله تعالى: ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، والإعداد هنا التهيئة والإحضار[2].

والداعية في اللغة: الذي يدعو إلى دينٍ أو فكرة، والهاء للمبالغة[3]، والمراد به هنا: المكلَّف شرعًا بالدعوة إلى الله[4].

وإعداد الداعية في الاصطلاح: تهيئة الداعية؛ ليكون مؤهلًا للقيام بعملية الدعوة تأهيلًا شرعيًا وفنيًا وتطبيقيًا، منسجمًا مع واقع الحياة، بناءً على نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، وسيرة

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة لـأحمد مختار عبد الحميد عمر(2/1463).
(2) التحرير والتنوير لابن عاشور (55/10).
(3) لسان العرب لابن منظور (258/14)، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون (287).
(4) أصول الدعوة لزيدان (305).

السلف الصالح[1].

أهمية إعداد الداعية:

تُعدّ العناية بإعداد الداعية من أهم الركائز التي تقوم عليها فاعلية الدعوة إلى الله ونجاحها؛ إذ لا يمكن لمهمةٍ عظيمةٍ كبلاغ الرسالة، وهداية البشرية، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، أن تُوكل إلى غير المؤهلين والمعدّين إعدادًا متكاملًا في الجوانب الإيمانية والعلمية والسلوكية والمنهجية، وقد كانت هذه سنة الله تعالى في أنبيائه ورسله، قال الله تعالى عن موسى- عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]، والصنع "مستعار للتربية والتنمية، تشبيهًا لذلك بصنع شيءٍ مصنوع"[2]، والمعنى "لتتربى على عيني، وفي حفظي ورعايتي"[3].

وقد اعتنى القرآن الكريم بإعداد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إعدادًا فريدًا يجمع بين تزكية النفس، وترسيخ العقيدة، وتعميق المعرفة، وتثبيت القلب، وتعليمه فنون الدعوة ومهارات التأثير، مما يجعل هذا النموذج القرآني أساسًا في بناء أي شخصية دعوية.

وكلما اكتمل إعداد الداعية في ذاته، ووعيه، وأخلاقه، ومهاراته، كان أقدر على مواجهة التحديات، والاحتكاك بالناس، والدعوة بالحكمة، وتقديم الدين في أبهى صوره، بل إن ضعف الإعداد قد يؤدي إلى الفتور أو الانحراف أو الفشل في تحقيق أهداف الدعوة.

وتتزايد أهمية إعداد الداعية اليوم في ظل واقعٍ معقدٍ، يتسم بتغيرات متسارعة، وتحديات فكرية وأخلاقية متجددة، وفي عصرٍ تتلاشى فيه كثير من القيم الأصيلة، وتُفرض فيه ثقافة الطرف الأقوى، عبر وسائل الإعلام والتقنية والتشريعات الدولية، مما أحدث خللًا واضحًا في موازين الوعي، واضطرابًا في مفاهيم الهوية، وغيابًا ملحوظًا للقدوة الملهمة.

إن العالَم اليوم لا يواجه أزمة معلوماتٍ بقدر ما يواجه أزمة "معايير"، وقدرةٍ على التوجيه الراشد، والتأثير القيمي البنّاء القائم على القدوة.

في ظل هذا الواقع، تبرز الحاجة الملحّة إلى إعداد الداعية إعدادًا متكاملًا، يجمع بين التزكية الإيمانية، والتكوين العلمي الرصين، والخلق القويم، والمهارة في عرض الإسلام بحكمةٍ وبلاغة، ووعي بالواقع.

فالداعية اليوم لم يعد مجرد ناقلٍ للمعرفة أو مبلّغٍ للنصوص، بل هو صانع وعي، ومُرشد في زحام الفتن، ومُجدد لخطاب الدعوة، يوازن بين الثوابت والمتغيرات، ويجمع بين الأصالة والمعاصرة، ومن هنا كانت العناية الربانية بإعداد النبي- صلى الله عليه وسلم- هي النموذج الأكمل، والمنهج الأمثل في تكوين الداعية ، الذي يتحرك بنور الوحي في واقعٍ يموج بالتحديات.

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث، الذي يسعى إلى تتبع ملامح إعداد الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من خلال خطابه المباشر له، باعتباره النموذج الأكمل للداعية، والقدوة الأسمى للمصلحين.

(1) إعداد الداعية في ضوء القرآن والسنة لجلوس القحطاني (25).
(2) التحرير والتنوير لابن عاشور (25).
(3) المختصر في تفسير القرآن الكريم لنخبة من المختصين (314).

ثانيًا: مفهوم خطاب الله للنبي– صلى الله عليه وسلم–:

خطاب في اللغة اسم جنس، وهو مصدر خَاطب، والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابًا، وهما يتخاطبان(1).

وخطاب الله تعالى للنبي– صلى الله عليه وسلم–: الكلام الإلهي الذي وجهه الله تعالى إلى نبيه — صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم مما يتعلق بالدعوة.

أهمية خطاب الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام المتعلق بالدعوة:

تتجلى أهمية خطاب الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– في ميدان الدعوة في كونه المنهاج الرباني الخالص الذي تولى الله به إعداد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– للقيام بمهمة البلاغ، وإقامة الحجة، وهداية الناس، وصياغة أمة شاهدة على الناس.

فهذا الخطاب ليس مجرد أوامر ونواهٍ، بل هو برنامج تربوي متكامل، تكفّل به الوحي الإلهي، لتنشئة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– على معايير الصدق والرفق والحكمة والصبر والبصيرة والقوة، وتأهيله لقيادة الإنسانية نحو التوحيد والعدل والرحمة.

ويكتسب هذا الخطاب أهمية كبرى من عدة وجوه:

1. أنه صادر من الله تعالى، فهو أعلى وأصدق مصادر التوجيه، وأبعدها عن النقص أو الهوى، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل: 6]، أي: "إنك لتأخذه من عند حكيم في أوامره ونواهيه، عليمٌ بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام"(2)، ولفظ "تُلَقَّى" "يلقي ظل الهداية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم، يصنع كل شيء بحكمة، ويدبر كل أمرٍ بعلم، وتتجلى حكمته وعلمه في هذا القرآن، في منهجه، وتكاليفه، وتوجيهاته، وطريقته"(3).
2. أن المخاطَب به هو النبي محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– الذي جعله الله قدوةً وأسوةً للعالمين، فكل خطاب له من حيث المعنى والتكليف، يعم أمته إلا لدليل يدل على الخصوصية(4)، كما أن "الأمر لواحدٍ من الأمة يدخل الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– في حكمه"(5).
3. أنه يرسم معالم المنهج الدعوي الكامل، إذ يجمع بين التزكية الإيمانية، والتكوين العلمي الفكري، والتوجيه الأخلاقي والسلوكي، ويُقدِّم هذه المكونات في توازن فريد.
4. أنه يُظهر مراحل إعداد الداعية عبر البلاغ النبوي، من التهيئة النفسية، والتسديد في المواقف، إلى تقويم السلوك، وترسيخ المبادئ، ومواجهة التحديات.

---

(1) انظر: لسان العرب لابن منظور (361/1)، والتحبير شرح التحرير للمرداوي (2/794).
(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (178/6).
(3) في ظلال القرآن لسيد قطب (2628/5).
(4) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للثعلبي (330/2)، وهذا على الصحيح من أقوال العلماء، بل هو مذهب الجمهور، وفي المسألة خلاف معروف بين الأصوليين، انظره في التحبير شرح التحرير للمرداوي (5/2460).
(5) العدة في أصول الفقه لابن الفراء (359/1).

ومن هنا، فإن دراسة هذه الخطابات الإلهية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سياق الدعوة ليست فقط نافذة لفهم سيرة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بل هي أيضًا مرجع تأسيسي لبناء الداعية المعاصر، وتحديد معالم خطابه، وتقديم النبوة كأنموذج رباني للتغيير والإصلاح.

المبحث الأول: معالم الإعداد الإيماني والتزكوي

يقصد بالإعداد الإيماني والتزكوي: ترسيخ الإيمان واليقين عبر الخطابات التي تتناول تزكية النفس، وتعزيز الصلة بالله تعالى، وترسيخ العقيدة، وتعزيز المراقبة والرضا.

ويهدف هذا الإعداد إلى بناء مناعة القلب ضد الشهوات والشبهات، "فتربية القلب ذات أهمية قصوى في المنظومة التربوية الإسلامية؛ لأن القلب مركز الحركة والتوجيه، والسلطة الذاتية، وأساس الأخلاق والأعمال والتصرفات، في الكيان الإنساني كله"[1]، ومن هنا جاءت العناية بالإعداد الإيماني للرسول- صلى الله عليه وسلم-.

ولعل في كثرة الآيات التي تدل على هذا ما يعطينا صورةً عن الإعداد الإيماني الذي خضع له رسول الله —صلى الله عليه وسلم-حتى زكت نفسه، وقوي بالله يقينه، ففي قصة بداية الوحي دلالة واضحة على هذا الإعداد، كما في حديث عائشة —رضي الله عنها- قالت: أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: "فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾[العلق: 1-3]، فرجع بها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- فقال: "زملوني زملوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[2].

وقد كان اعتزال النبي —صلى الله عليه وآله وسلم- في الغار جزءًا من التدبير الإلهي لإعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، وفي أول لحظة من لحظاتِ الرسالة الأخيرة للبشرية، وفي أول سورة من سور القرآن الكريم، جاءت قاعدة التصور الإسلامي الكبرى: "أن كل أمر، وكل حركة، وكل خطوة، وكل عمل، يجب أن تكون باسم الله، وعلى اسم الله، باسم الله تبدأ، وباسم الله تسير، وإلى الله تتجه، وإليه تصير.

"وهذه الحقيقة الإيمانية الأولى، التي تلقاها قلب رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره، وتصرف لسانه، وتصرف عمله واتجاهه، بعد ذلك طوال حياته، بوصفها قاعدة الإيمان الأولى"[3]، حتى "كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه

(1) تربية القلب في حياة الرسول لعثمان رسلان (8/1).
(2) صحيح البخاري برقم: (3)، (7/1).
(3) في ظلال القرآن لسيد قطب (3939/6).

للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده، ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده، وتسبيحه ذكرًا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته ذكرًا منه له، وسكوته وصمته ذكرًا منه له بقلبه، فكان ذاكرًا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته"[1].

ويتجلى الإعداد الإيماني أيضًا في فرض العبادات التي تزكّي النفس، وتربطها بالله تعالى، وعلى رأسها قيام الليل، كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا. إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحًا طَوِيلًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل: 1:8]، إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة، قيام الليل، حيث فرض الله تعالى قيام الليل على نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– في مطلع الدعوة، فكان يقوم هو وأصحابه الليل، نحو قيامهم في شهر رمضان، حتى خفف ذلك عنهم فنسخ بنزول آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة[2]؛ ليدلّ على أن إعداد الداعية يبدأ من تزكية النفس، ومجاهدة الهوى، فقيام الليل عبادة شاقة على الأبدان؛ لكنها زاد الأرواح، ومحراب التكوين الإيماني الذي يتربى فيه الداعية على الصدق مع الله، وقوة الصلة به، وترسيخ اليقين، والانقطاع إليه، قبل أن يواجه الخلق أو يدعوهم.

إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية، وسفسافها، والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن ترتيلًا والكون ساكن، وكأنما هو يتنزّل من الملأ الأعلى، وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي، كل ذلك أقوم قيلًا؛ لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وإنها لتسكب في القلب أنسًا وراحةً وشفافيةً ونورًا، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحًا واستعدادًا وتهيؤًا، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرًا فيه.

والله– سبحانه– وهو يعد عبده ورسوله محمدًا– صلى الله عليه وآله وسلم– ليتلقّى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل؛ لأنّ ناشئة الليل هي أشد وطًا وأقوم قيلًا، ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيرًا من الطاقة والالتفات[3].

كما يظهر الإعداد الإيماني في توجيه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– إلى العبادة الدائمة والذكر المستمر، والزهد في زخارف الدنيا، والصبر، خاصة في مواجهة أذى قومه وسخريتهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ• وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: 130-

(1) زاد المعاد لابن القيم (332/2).

(2) انظر: جامع البيان للطبري (673/23)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (3744/6)، والصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي (222).

(3) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (3746/6).

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.129

131]، أي: "أكثِر- أيها الرسول الكريم- من الاتجاه إلى ربك، ومن تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة، ولا تُطِل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما متعنا به أزواجًا منهم"[1]، فتسبيح الله وذكره في مواقيت مخصوصة غذاء القلب، ومدد الطريق، وسر الثبات على الإيمان، كما أن فيه إعداد روحي عظيم للداعية خاصة في مواطن الفتن والضغوط، ولذلك لا عجب أن يتكرر الأمر للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالتسبيح في القرآن الكريم كثيرًا، كما أن في الأمر بالتوجه إلى الله بالعبادة وترك الالتفات إلى عرض الحياة الدنيا، من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان، دعوة للزهد في طيبات الحياة، والاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا، وتبقى دائمًا تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار[2].

ومن أبرز معالم الإعداد الإيماني في قلب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- غرس توحيد الله وتعظيمه في قلبه، من خلال الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4:1]، وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر: 7:1]، أي: "عظّم ربّك، وطهّر ظاهرك وباطنك، واترك المعصية، ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، واجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل"[3]، فهذا إعلان لمقام الله الأعلى في النفس، والتنبيه على طهارة الظاهر والباطن، وهي من لوازم الدعوة وأهلها.

إن كل هذه الخطابات الجامعة بين الأمر والنهي، تعد الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم- إيمانيًا، حيث يوجهه الله في خاصة نفسه، بعد إذ كلفه نذارة غيره، يوجهه إلى تكبير ربه، فهو وحده الكبير، الذي يستحق التكبير.

"وهذه الحقيقة إذا استقرت في قلب الداعية ورسخت، صغر في قلبه كل شيء مما سوى الله تعالى، من الأجرام والأحجام، والقوى والقيم، والأحداث والأحوال، والمعاني والأشكال، وبهذا التصور، وبهذا الشعور، يستصغر كلَ كيد، وكل قوة، وكل عقبة، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة، هو الكبير"[4].

ومن معالم التربية الإيمانية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمره بالاستدامة على تقوى الله؛ ليكون دائم الصلة بربه، في السر والعلن، وقد كان -عليه الصلاة والسلام- كذلك، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾[الأحزاب:1]، وكذلك توجيهه إلى التجرد الكامل من الحول والقوة، والاعتراف بعجز النفس، وهو جوهر العبودية التي تصلح قلب الداعية، وتمنع الغرور، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188]، وتوجيهه في أكثر من موضع إلى التوكل على الله في كل حال، قال تعالى:

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لـمحمد سيد طنطاوي (9/168).
(2) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (2357/4).
(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (264/8).
(4) في ظلال القرآن لسيد قطب (3754/6)

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:58]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود:123]، وكذا إرشاده إلى الاستعاذة بالله تعالى من جميع الشرور الظاهرة والباطنة، كما في المعوذتين، اللتين كانتا تربية للنبي على التحصّن بالله واللجوء إليه من شرور الخلق والجن والإنس، ومن وساوس الصدور، وهذه قمة الإعداد الإيماني، في مواجهة ما لا يُرى ولا يُدرك بالحواس.

هكذا نرى في هذه الآيات الكريمات الأمر بالتقوى، والإخلاص والتجرد والتوكل، والاستعاذة به، "ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله، كما أن ينبوع الخير، وأصله: إخلاص العبد لربه عبادةً واستعانةً، وتوكله عليه، بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعًا بهم، أو عملًا لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة، وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب، ومَن أحكَمَ هذا، فلا يمكن أن يُوصف ما يعقبه ذلك"[1].

يتضح من خلال ما سبق عرضه أن الإعداد الإيماني للنبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- شكّل الأساس الأول، والمنطلق الأهم في بناء شخصيته الدعوية والقيادية، حيث تولّى القرآن الكريم عنايةً خاصة بتزكية نفسه، وتقوية صلته بالله تعالى، وترسيخ معاني التوحيد والتجرد والتوكل والصبر والخشية، في مختلف مراحل البعثة ومواقفها، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:99]، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية مقتديًا بالنبي — صلى الله عليه وآله وسلم- في العلاقة الدائمة، والتغذية المستمرة، دون توقف لحظة، فهذه التغذية تقوي الداعية، وتصبّره على صعوبة الحياة، ومشقة الدعوة.

كما يتضح أيضًا أن هذا الإعداد لم يكن مجرد تمهيد نفسي أو عبادي، بل كان مشروعًا متكاملًا لبناء الذات المؤمنة القادرة على تحمّل أعباء الرسالة، ابتداءً من غرس العقيدة الصحيحة، ومرورًا بعبادة الليل والتقوى والصبر، وانتهاءً بتطهير القلب والجوارح، وتحصين النفس من دواعي الضعف والانحراف، كما أن القرآن الكريم استعمل أنماطًا متعددة من الخطاب والتوجيه والتربية، مما يؤكد عمق المنهج الرباني في إعداد القادة والرسل.

ويمكن القول إن الإعداد الإيماني يُعدّ شرطًا أصيلًا في نجاح الداعية، وأساسًا لا غنى عنه في تثبيت المصلحين، إذ لا يثمر القول، ولا يستقيم العمل، ولا تصمد الشخصية أمام الفتن والمحن، إلا إذا تأسّست على قاعدة إيمانية متينة، فالمتأمل في التجربة النبوية يجد فيها أن التربية الإيمانية، كانت تسبق كل تكليف، وترافق كل مهمة، وتُجدد عند كل مرحلة من مراحل الدعوة.

وعليه: فإن من أهم ما ينبغي التأكيد عليه في إعداد الدعاة اليوم، هو استلهام هذا المنهج الرباني، وربط البناء الدعوي بالبناء الإيماني، والتأكيد على أن الدعوة لا تُؤتي ثمارها، إلا إذا صدرت عن قلبٍ ممتلئٍ بالله، مطمئنٍ به، متجردٍ له، عاملٍ على هديه.

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (659/10).

المبحث الثاني: معالم الإعداد العلمي والفكري

يقصد بالإعداد العلمي والفكري: بناءُ الشخصية الدعوية على أساسٍ رصينٍ من المعرفة الشرعية والفهم العميق للوحي، وإدراكِ سنن الله في الكون والحياة، وتحصيلِ الحكمة في تبليغ الرسالة، وهو يشمل تلقّي النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الوحيَ مباشرةً من الله تعالى، وفهمَ أحكامه، واستيعابَ مقاصده، وتطبيقَها واقعًا.

ويهدف هذا الإعداد إلى تأهيل الداعية الأول –عليه الصلاة والسلام– لفهم الدين كاملًا، وامتلاكِ أدوات الاجتهاد، والتمييزِ بين الحق والباطل، والقدرةِ على مواجهة الشبهات بالحجة والبرهان، فالعلمُ في المنظور الإسلامي أساسُ العمل، وشرطٌ لصلاح القلب والجوارح، وبه يُحفظ الدين من التحريف، ويُقاوَمُ الجهلُ الذي يُفسد الفطرة.

ولأهمية هذا الجانب اعتنى به القرآن الكريم عناية بالغة، وتجلت هذه العناية في خطاب الله تعالى لنبيه محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– الذي تولى تعليمه وتفقيهه، حتى بلغ أعلى درجات العلم والبيان، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، ففي الآية امتنان الله على محمدٍ – صلى الله عليه وآله وسلم– حيث أنزل عليه القرآن، الذي يهدي للتي هي أقوم، وأنزل عليه الحكمة، أي: "العلم النافع الذي يجعلك تصيب الحق في قولك وعملك، وعلّمه ما لم يكن يعلم من أخبار الأولين والآخرين، ومن خفيات الأمور، ومن أمور الدين والشرائع، فالآية الكريمة فيها ما فيها من التنويه بشأن الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– ومن مظاهر فضل الله عليه ورحمته به"[1]، وهي من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب، وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل، كما قال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[الإسراء: 85]، "ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلًا، ثم إنه سمى ذلك القليل عظيمًا، وذلك يدل على غاية شرف العلم"[2].

كما تجلّى هذا الإعداد منذ اللحظة الأولى لنزول الوحي، حيث نزلت أول آية في القرآن الكريم باتفاق المحققين من أهل العلم[3]، وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[اقرأ: 1:5]، وافتتاح السورة بكلمة: "اقرأ" إيذان بأن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– سيكون قارئًا، أي: تاليًا كتابًا بعد أن لم يكن قد تلا كتابًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: 48]، أي من قبل نزول القرآن، ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لجبريل حين قال له اقرأ: "ما أنا بقارئ"[4]، كما أن في البدء باسم الرب، إشارة إلى وحدة مصدر التلقي في الإعداد العلمي، إذ مصدره الله تعالى، فهو الحق المبين.

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي (305/3).
(2) مفاتيح الغيب للرازي (217/11).
(3) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (93/1)، والتفسير الوسيط للطنطاوي (452/15).
(4) صحيح البخاري برقم: (3)، (7/1).

كما يتجلى إعداد النبي —صلى الله عليه وآله وسلم– علميًا وفكريًا في نزول الوحي على النبي —صلى الله عليه وآله وسلم– متدرجًا؛ ليكون أبلغ في التثبيت، وأرسخ في الفهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء: 106]، فالتدرجُ في النزول لم يكن مجرد تسلسل زمني، بل منهجًا تربويًا عاليًا لتعليم النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأمته؛ حيث يُبنى العلمُ شيئًا فشيئًا، كالبنيان يُرفع لَبْنَةً لَبْنَة.

ويتجلى أيضًا في نزول القرآن حسب الوقائع والأحداث، وهو ما يطلق عليه العلماء "أسباب النزول"، ويقصدون به: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال"[1]، فهذه الحوادث التي وقعت في زمن الرسول — صلى الله عليه وآله وسلم – ونزلت آيات قرآنية على إثرها؛ لتوضّح حكمًا شرعيًا، أو تعطي توجيهًا معينًا، هذه الحوادث لم تكن مجرد حوادث تاريخية، بل كانت مدرسة عملية تعد النبي —صلى الله عليه وآله وسلم– إعدادًا علميًا متكاملًا، فهي أشبه ما تكون بوسائل إيضاح للنص القرآني وتنزيله على الواقع، واعتمادها بعد ذلك في الحوادث المشابهة والتطبيقات المختلفة، ما جعل القرآن متفاعلًا مع الواقع الذي عاشه المسلمون، وساهم في فهمه واستيعابه[2]، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن رجلًا أصاب من امرأة قُبْلَةً، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فذكر ذلك له، فأُنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:114]، قال الرجل: أَلِيَ هذه؟ قال: "لمن عمل بها من أمتي"[3].

وهكذا تمثل أسباب النزول ميدانيًا تدريبيًا يتلقى فيه النبي —صلى الله عليه وآله وسلم– الإعداد والتكوين، فتجعل الأحكام والتوجيهات أكثر وضوحًا وتأثيرًا، وأقدر على بناء العقل التطبيقي للداعية، يعلمه فقه الواقع، ومراعاة المصالح، والتدرج، كما يعلمه طريقة التعامل مع النفوس ومراعاة البيئات.

ومن أبرز معالمه: توجيهُ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– إلى طلب الزيادة من العلم والفهم، كما في قوله تعالى في سورة "طه" المكية، وهي الخامسة والأربعون في ترتيب النزول:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه:114]، فهذه الآيةُ إرشادٌ إلى أن العلم بحرٌ لا ساحل له، وأن الداعيةَ يحتاج إلى تواصل دائم مع منابع المعرفة.

وتمثِّل قصةُ الإسراء والمعراج أنموذجًا فريدًا للإعداد العلمي التطبيقي، حيث أتيح للنبي — صلى الله عليه وآله وسلم– الاطلاع على مشاهد كونيةً عظيمةً، ومعاينة مصائر الأمم، ومشاهد الجنة والنار، واللقاء بالأنبياء وإمامته لهم، مما عزّز وعيه بمكانته النبوية، وزاد من يقينه برسالته، ووسع من أفق رؤيته الدعوية؛ ليدعو بعد ذلك إلى شيء قد رآه وشاهده، كما فُتح له بابٌ واسع من أبواب المعرفة بالغيب الذي لا يدرك بالعقل المجرد، وفرضت عليه الصلاة في هذا الحدث الجليل، اعتناءً بشرفها وعظمتها[4]، قال تعالى:

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (1/116)، ومباحث في علوم القرآن للقطان (78).
(2) انظر: البلاغ المبين في ضوء القرآن الكريم للبحري (28).
(3) صحيح البخاري برقم: (4687)، (6/75)، وصحيح مسلم برقم: (2763)، (4/2115).
(4) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (40/5)، والسيرة النبوية للصلابي (229).

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: 1]، أي: "من عبرنا وأدلتنا وحججنا"[1]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 18]، "إشارة إلى عِظَم ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه"[2].

ومن جوانب الإعداد العلمي والفكري للنبي –صلى الله عليه وسلم– تعليمه أساليب الدعوة وطرائقها، فأساليبها تتنوع وتتعدد إلى أنواع عديدة[3]، والمتأمل في القرآن الكريم يجده قد أشار إلى هذه الأساليب، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:125]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:108]، ففي هاتين الآيتين أمر الله تعالى بالدعوة إليه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن، وهذه المذكورات كلها تشمل العلم، والوضوح، وتقديم البراهين، واختيار الأسلوب، والتدرج، إذ الحكمة: "اسم جامع لكل كلام، أو علم، يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم، إصلاحًا مستمرًا لا يتغير، فهي إتقان العلم، وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم"[4]، "والدعوة بالحكمة أن تدعو كل أحد على حسب حاله، وفهمه، وقوله، وانقياده، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين"[5]، ولعل من أبرز الأدلة على ذلك في حياة الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة –رضي الله عنها– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لها: "يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت، فهُدِم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا، فبلغت به أساس إبراهيم"[6]، وكذا ما جاء في مكاتبته –عليه الصلاة والسلام– للملوك[7]، فالحكمة إذن تشمل المعرفة، والعمل بها، ووضع الأمور في موضعها الصحيح، وأما الموعظة، فهي: القول الذي يليّن نفسَ المقولِ له لعمل الخير، وهي أخص من الحكمة؛ لأنها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها، ووصفها بالحسن تحريض على أن تكون لينة مقبولة عند الناس، أي حسنة في جنسها، وعطَف الموعظة على الحكمة؛ لأنها تغاير الحكمة بالعموم والخصوص الوجهي، فإنه قد يسلك بالموعظة مسلك الإقناع، فمن الموعظة حكمة، ومنها خطابة، ومنها جدل[8]، ينتقل الداعي إلى الموعظة الحسنة مع المدعو إذا لم ينقاد بالحكمة، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا،

(1) جامع البيان للطبري (351/17).
(2) التحرير والتنوير لابن عاشور (98/17).
(3) الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للمغذوي (359).
(4) التحرير والتنوير لابن عاشور (61/3) و (374/14).
(5) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (452).
(6) صحيح البخاري برقم: (1586)، (2/147).
(7) انظرها في: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني (3/320:311).
(8) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (3/61) و (14/374).

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق، لا المغالبة ونحوها[1]، والملاحظ في الآية التأكيد على حسن اختيار الأسلوب مع المبلَّغ، بوصف الموعظة بالحسنة، ووصف المجادلة بالتي هي أحسن، فالموعظة الحسنة "هي التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، والجدل بالتي هي أحسن هو الذي لا تحامل فيه على المخالف، ولا ترذيل له، ولا تقبيح"[2].

أما البصيرة التي أشارت إليها الآية الثانية، فمعناها: أن يكون الداعية إلى الله عالماً بما يدعو إليه (الإحاطة الشرعية)، وعالماً بحال المدعوين، وإيصال ما يصلح لهم، وينفعهم (فقه الواقع)، وعالماً أيضًا بطريقة الدعوة إلى الله تعالى، مؤطرًا كل ذلك بالنصوص الشرعية، مع الأخذ بالأساليب، والوسائل الشرعية المتاحة، وترك الوسائل المنهي عنها(توظيف الأساليب المشروعة)[3].

هذا الإعداد الذي أرشدت إليه الآيات الكريمة يخرج داعية عالماً بشرع الله تعالى، حكيمًا في تنزيل الأحكام، بصيرًا بالواقع.

يتضح من خلال ما سبق عرضه أن الإعداد العلمي والفكري للنبي – صلى الله عليه وآله وسلم– شكّل أساسًا مهمًا في بناء شخصيته الدعوية، حيث أولى القرآن الكريم عنايةً خاصة بتعليمه وإرشاده من أول يوم للدعوة؛ حتى لحق بالرفيق الأعلى، كما أن القرآن الكريم استعمل أساليب متعددة من الخطاب والتوجيه والتربية، مما يؤكد عمق المنهج الرباني في إعداد الدعاة.

ويمكن القول إن الإعداد العلمي يُعدّ شرطًا أصيلًا في نجاح الداعية، وأساسًا لا غنى عنه في تثبيت المصلحين، إذ به يحصل البلاغ المبين، وتقوم الحجة، وتثبت الشخصية أمام الفتن والمحن، فالمتأمل في التجربة النبوية يجد فيها أن "العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل"[4]، قال تعالى: ﴿اعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19].

وعليه: فإن من أهم ما ينبغي التأكيد عليه في إعداد الدعاة اليوم هو استلهام هذا المنهج الرباني، وربط الإعداد الدعوي بالإعداد العلمي، والتأكيد على أن الدعوة لا تُؤتي ثمارها، إلا إذا صدرت عن داعيةٍ عالمٍ بالشرع، حكيمٍ بتنزيل الأحكام، بصيرٍ بالواقع.

المبحث الثالث: الإعداد الأخلاقي والسلوكي للداعية

يقصد بالإعداد الأخلاقي والسلوكي: تلك العملية التربوية التي تهدف إلى تهذيب نفس الداعية، وتقويم سلوكه الظاهر والباطن، وغرس مكارم الأخلاق فيه، حتى تتجسّد دعوته واقعًا عمليًا في أقواله

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (452).
(2) في ظلال القرآن لسيد قطب (4/2202).
(3) انظر: البصيرة في الدعوة إلى الله للعنزي (17).
(4) فتح الباري لابن حجر (160/1).

وأفعاله، ويغدو قدوةً يُقتدى بها في تعامله مع الناس، على أساس راسخ من القيم القرآنية والهدي النبوي.

ويهدف هذا المبحث إلى بيان أهمية هذا الجانب في تكوين شخصية الداعية، من خلال تتبع مظاهر إعداد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أخلاقيًا وسلوكيًا في القرآن الكريم، وكيف تولى الله– عز وجل– تربيته وتزكيته، وتعليمه مكارم الأخلاق؛ ليكون قدوة عملية في دعوته، وليتجاوز ما يعترض سبيلها من موانع نفسية واجتماعية.

ويُعدّ الجانب الأخلاقي والسلوكي ركيزة أساسية في البناء الدعوي، إذ لا يثمر العلم دون سلوك مستقيم، ولا تنجح الدعوة ما لم يُجسّد الداعية ما يدعو إليه، سلوكًا وموقفًا، قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: 3].

برز الإعداد الأخلاقي للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– منذ طفولته، حيث حفِظه الله من مزالق الجاهلية، وشرح صدره فطهّره من شوائب النفس والهوى، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح:1]، وذلك فيما قيل إشارة إلى حادثة شق صدره– عليه الصلاة والسلام–[1]، التي رواها مسلم عن أنس بن مالك —رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره – فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون"، قال أنس: "وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره"[2]، وقد ثبت أيضًا شق صدره مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج ، كما في الصحيحين: كان أبو ذر –رضي الله عنه– يحدث أن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: "فُرِجَ سقفي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففَرَجَ صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمةً وإيمانًا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل"[3] ولعلّ أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني، ومفاتن الحياة الأرضية[4]، "مع أنه شاب عاش في بيئة جاهلية وبين جاهليين، لم يذكر عنه شيء من الرذائل، ولو عرف شيء من ذلك لعيب به، لا سيما مع حرصهم الشديد على إلصاق التهم– الكاذبة– به بعد نبوته، ومع ذلك عاش محفوظًا من الرذائل طوال عمره، وقد قال سبحانه: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾[المؤمنون: 69]، وقال– سبحانه– مرشدًا رسوله أن يقول لهم: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[يونس: 16]"[5].

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (441/4)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (409/30)، والسيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية لدبيسي (187).
(2) صحيح مسلم برقم: (162)، (147/1).
(3) صحيح البخاري برقم: (1636)، (156/2)، وصحيح مسلم برقم: (163)، (148/1).
(4) انظر: فقه السيرة للغزالي (66)
(5) بينات الرسول ومعجزاته للزنداني (18)

ويتجلى إعداده أخلاقيًا من تزكية الله تعالى لخُلُقِه الكامل والثناء عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: 4] وإنما وصف خلقه –صلى الله عليه وآله وسلم– بالعظمة؛ "لاجتماع مكارم الأخلاق فيه"[1]، وهذه شهادة ربانية عظيمة في تمجيد خُلقه، مما يدل على أن الله تعالى زكّى أخلاقه، وهيأه بذلك ليكون قدوة للناس، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: 159]، فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم فجعلته – صلى الله عليه وسلم– رحيما بهم، لينًا معهم، ولو كان فظًا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبيرٍ يعطيهم، ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم، ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء، وهكذا كان قلب رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه وودّه الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه– صلى الله عليه وسلم– من نفسه الكبيرة الرحيبة[2].

كما يتجلى إعداده من الغاية التي بعث من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، "يعني أن محمدا –صلى الله عليه وآله وسلم– فُطر على خُلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة؛ لتتكون مناسبة بين روحه الزكية، وبين ما يُلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة، حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يُوحى به إليه ملائمًا رغبته وخُلقه"[3].

ويتجلى إعداده –صلى الله عليه وآله وسلم– أخلاقيًا وسلوكيًا في توجيه الله تعالى له بالعفو والصفح، كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13]، أي: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين همُّوا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جُرْمهم بترك التعرُّض لمكروههم، فإني أحب من أحسنَ العفو والصَّفح إلى من أساء إليه، وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:29]، "غير أن الناسخ الذي لا شك فيه هو ما كان نافيًا كلَّ معاني خلافهِ الذي كان قبله، فأمَّا ما كان غير نافٍ جميعَه، فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله جل وعز أو من رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم– وليس في قوله: "قَاتِلُوا" دلالةٌ على الأمر بنفي معاني الصَّفح والعفو عن اليهود"[4]، والصفح الذي أمر الله به، هو الجميل، قال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:85]، أي "الحَسَن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور (64/29).
(2) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (501/1).
(3) التحرير والتنوير لابن عاشور (167/17).
(4) جامع البيان للطبري (135/10).

المعتدين الظالمين، الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى"[1].

وفي أمر الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– بالصبر في عدة مواضع في القرآن الكريم دليل على إعداده أخلاقيًا، "فالصبر ركن من أركان حسن الخلق الذي لا يقوم إلا به"[2]، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[طه:130]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾[المعارج: 5]، والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه، لا تضجر ولا ملل، وهو الحسن في نوعه الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر، أي اصبر صبرًا محضًا، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعكر معناها من بقايا أضدادها[3].

كما أن من أبرز مظاهر الإعداد الأخلاقي والسلوكي للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ما تكرر في القرآن الكريم من توجيهه إلى السكينة والثبات، والنهي عن الحزن والضيق، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: 70]، يتجلى في هذه الآية جانب دقيق من التربية الإلهية للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يتمثل في تهذيب مشاعره وتقويم وجدانه، وتثبيته أمام ما يلاقيه من صدود وأذى، إذ الحزن والضيق يضعفان العزيمة، ويكدران صفو النفس، ويحدَّان من أثر البلاغ والدعوة، كما أن تكرار هذا التوجيه في مواضع متعددة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[الحجر: 97]، يشير إلى أهمية الاستقرار النفسي للداعية، وعدم السماح للتحديات والصعوبات أن تسرق منه الطمأنينة والثبات، فالداعية لا بد أن يربى على الانضباط العاطفي، والتسامي الشعوري، وتطويع المشاعر لخدمة الرسالة، لا أن يكون أسيرًا لها أو منقادًا خلفها، وهذه التهيئة الأخلاقية العاطفية كانت جزءًا من إعداد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ليحمل أمانة الدعوة في وجه قوم معاندين، ونفوس مستكبرة.

ومن مظاهر الإعداد الأخلاقي والسلوكي الدقيق للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ما نلمحه في جملة من الآيات التي تبني شخصية الداعية على صفاء المقصد، وسلامة القلب، وحسن التعامل، وفقه المقامات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:2]، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: 47]، في هاتين الآيتين، وما في مثلهما، تربية خالصة، موجهة لتطهير نية النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ، وترسيخ معنى الإخلاص التام في البلاغ والدعوة، وهو تأديب إلهي يغرس في قلب الداعية معنى الإخلاص والزهد في المدح، والترفّع عن مقابل دنيوي، وإن قلّ، أما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6]، "فالله يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به، فهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحسّ بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل؛ لأنها مستغرقة في الشعور بالله، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه، فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله، وهو اختيار واصطفاء وتكريم

(1) تفسير السعدي (443).
(2) مدارج السالكين لابن القيم (294/2).
(3) انظر: جامع البيان للطبري (603/23)، وتفسير السعدي (885)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (158/29).

يستحق الشكر لله، لا المن والاستكثار"[1].

كما جاء التوجيه الرباني بتحذير النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من طاعة أصحاب السوء والانزلاق إلى هوى المفسدين، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 10-11]، وهنا يبرز جانب من الحماية الأخلاقية والسلوكية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من التأثر بأهل الفجور واللسان السيء، فالله يصون نبيه عن أهل الغمز واللمز والنميمة، ويمنعه من أن يُجاريهم أو يُسايرهم، ليكون الداعية في منأى عن أساليبهم، وليغرس في نفسه مبدأ الاستقلال الأخلاقي، ورفض التبعية المذلة، والارتقاء عن الألسنة الهابطة، وفي هذا إعداد للنفس على الحزم في المواقف، والصرامة في وجه الانحراف، دون أن يُمسّ ذلك بلينه أو حلمه.

ومن أعظم مظاهر التربية القرآنية في إعداد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصّلت: 34]، فهي دعوة إلى مقابلة الأذى بالحسنى، والصبر على الخصوم بالأخلاق، حتى تتحول العداوة إلى مودة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وهذا توجيه رفيع المستوى في فن التعامل مع الخصوم، يُربّي في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سمو النفس، وعلو الأخلاق، ويُعلّمه أن القلوب تُفتح بالحُسنى، وأن اللين المحكم أبلغ من ألف جدال، وهذه قاعدة في الإعداد السلوكي للداعية، أن يكون لطيف المعشر، حليم الطبع، قادرًا على كسب العدو بصفاء الروح.

وفي حادثة ابن أم مكتوم التي أجمع المفسرون أن فيها نزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: 1:10]، وذلك أنه أتى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، وعباس بن عبد المطلب، وأبيًا وأمية ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم، وقال: يا رسول الله، علمني، مما علمك الله؛ وجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لقطعه كلامه، وقال في نفسه: "يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد"، فعَبَس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات[2]، تربي النبي — صلى الله عليه وآله وسلم- على السلوك القائم على العدل والمساواة بين المخاطبين، وعلى أن ميزان القرب والقبول في الدعوة ليس الجاه أو المنزلة، بل الإخلاص والاستجابة، ثم جاء بعد تلك الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾[عبس:11]، "وكلا" ردع له -صلى الله عليه وآله وسلم- عما عُوتب عليه، أي: "لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني والتشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكّي والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم هو من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (3755/6).

(2) انظر: أسباب النزول للواحدي (449)، وفتح القدير للشوكاني (462/5)، والصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي (230).

إلى ما هو الأولى به، وإنما تذكرة، أي: أن هذه الآيات أو السورة موعظة، حقها أن تتعظ بها، وتقبلها، وتعمل بموجبها، ويعمل بها كل أمتك"[1].

ولما كان الداعية إلى الله تعالى معرّضًا لمواقف متباينة، منها ما يقتضي الحلم، ومنها ما يستوجب الحزم، فقد ربى الله تعالى نبيه –صلى الله عليه وسلم– على فقه التوازن، فكما أمره بالدفع بالتي هي أحسن، والرحمة، والرفق؛ أمره أحيانًا بالشدة في مواضعها، حفاظًا على هيبة الرسالة، والحزم في المواقف، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[النساء: 63]، أي: "فأعرِضْ عن قَبول معذرتِهم حتى يبقَوْا على وجَلٍ وحذر، وازجُرْهم عن النفاق والكيد، والقول البليغ هنا هو الواصل إلى كُنه المراد، مطابقًا لما سيق له من المقصود، مؤثرًا في قلوبهم، يستشعرون منه الخوفَ استشعارًا، وهو التوعُّد بالقتل والاستئصال والإيذان بأن ما في قلوبِهم من مكنونات الشر والنفاق غير خافٍ على الله تعالى وأن ذلك مستوجبٌ لأشد العقوبات"[2]، وكقوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73]، وإنما وجه هذا الأمر إلى الرسول– عليه الصلاة والسلام– لأنه جُبل على الرحمة، فأمر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين، وأن لا يغضي عنهم، كما كان شأنه من قبل[3]، ففي هذه التوجيهات بيان لفقه المقامات، وتربية على الموقف المناسب في الزمان والمكان المناسبَين، فليس كل موقف يُقابل باللين، كما أن الحزم لا يعني القسوة، بل هو ضبط دقيق بين الرفق والصرامة، بما يحقق المصلحة الدعوية، وهذا نوع من أنواع الإعداد الرباني، يُعلّم النبيَ –صلى الله عليه وآله وسلم– أن اللين لا يعني الضعف، كما أن الشدة لا تعني الغلظة والانفعال، وإنما هو فقه التوازن الذي لا يحسنه إلا من تربى على نور الوحي، وتمثل أخلاق النبوة.

يتبيّن من خلال ما سبق أن الإعداد الأخلاقي والسلوكي للنبي–صلى الله عليه وآله وسلم– مَثّلَ ركيزة جوهرية في تكوين شخصيته الرسالية، حيث تولّى القرآن الكريم تهذيب سلوك النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وتزكية مشاعره، وتوجيه مواقفه، بأساليب تربوية عظيمة، جمعت بين الرحمة والحزم، واللين والصرامة، والتجاوز والموقف، وقد تنوّعت وسائل هذا الإعداد بين التوجيه المباشر، والمواقف العملية، والقدوة النموذجية، مما يُظهر عمق التربية الربانية للداعية الأول، وقدر العناية الإلهية بتشكيل روحه وسلوكه، بما يتناسب مع عظمة الرسالة وثقل الأمانة.

كما يُظهر أن الدعوة إلى الله لا تنهض على العلم وحده، ولا على العبادة وحدها، بل لا بد أن يتكامل فيها الخلق والسلوك، إذ الأخلاق هي جسر القبول، وهي الوعاء الذي يُقدّم من خلاله العلم للناس، وإنَّ أبلغ الكلمات وأمتن الحجج قد تفقد أثرها إذا خرجت من قلب قاسٍ أو لسان جافّ؛ لذلك فإن نجاح الداعية مرهون برصيدِه من الرحمة، وسِعة صدره، وسمو أخلاقه، واتزانه في مواقفه، وفقه المقامات في تعامله مع الناس.

وعليه: فإن من أوجب ما ينبغي التأكيد عليه في إعداد الدعاة اليوم هو الاعتناء العميق بتزكية

(1) فتح القدير للشوكاني (463/5).
(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبي السعود (2/196).
(3) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (167/10).

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.129

النفوس، وتقويم الطباع، وتربية السلوك، ليكون الداعية قدوة في خُلقه قبل قوله، ورسالته سلوكًا حيًّا قبل أن تكون خطابًا لفظيًّا، يستمد هديه من مدرسة النبوة، ويهتدي بمنهاج القرآن في تربية القلوب والعقول معًا.

الخاتمة وفيها أبرز النتائج والتوصيات:

أولا: النتائج:

1. الخطاب القرآني الموجّه إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– هو خطاب تكويني وتفسيري شامل، يعكس نموذجًا ربانيًا متكاملًا في إعداد الداعية، من حيث الإيمان والعلم والسلوك، لا يقتصر على التوجيه الأخلاقي أو العقائدي فقط.

2. القرآن الكريم تولّى إعداد النبي ﷺ إعدادًا تدريجيًا ومتكاملًا، من خلال خطابات متكررة، تتنوع موضوعاتها وأساليبها، وتتناول بناء الذات من الداخل (الإيمان) والخارج (العلم والعمل والدعوة).

3. الإعداد الإيماني أبرز ما اعتمده الخطاب القرآني في التأسيس، وهو الأصل الذي تنبثق عنه باقي جوانب الإعداد، من خلال تزكية النفس، وتعزيز الصلة بالله، والصبر، والتجرد، والذكر، والعبادات.

4. الإعداد العلمي والفكري ظهر في تعليمه الوحي، والربط بين الوقائع والنصوص (أسباب النزول)، وإكسابه أدوات الحكمة والموعظة الحسنة، وتثبيته أمام الشبهات، بما يشكل أساس التفسير الفعّال للدعوة.

5. الإعداد الأخلاقي والسلوكي تجلّى في تزكية الله لأخلاق النبي ﷺ، وتوجيهه المستمر إلى العفو، والصفح، والرحمة، والصبر، مما جعل شخصيته النموذج الأسمى للداعية المتزن.

6. المنهج التفسيري التحليلي المستخدم في هذا البحث كشف عن أن الخطابات القرآنية الدعوية ليست مجرّد نصوص وعظية، بل هي وحدات تربوية متكاملة ذات أثر تفسيري عميق في بناء شخصية النبي ﷺ والداعية من بعده.

7. يمكن استنباط نموذج قرآني معاصر لإعداد الدعاة، من خلال تفسير خطابات الله تعالى لرسوله ﷺ، وهو ما يعزّز وظيفة التفسير الموضوعي في خدمة الواقع الدعوي والتربوي للأمة.

ثانيًا: التوصيات:

1. إدماج النموذج القرآني في مناهج إعداد الدعاة في المعاهد والكليات الشرعية، من خلال برامج تفسير موضوعي تركز على خطاب الله تعالى للنبي- صلى الله عليه وآله وسلم-.

2. تعزيز الدراسات التفسيرية التطبيقية التي تربط بين النص القرآني ومجالات التكوين القيادي والدعوي، وتشجع على استخراج نماذج واقعية من آيات القرآن.

3. الاهتمام بالإعداد الإيماني والتزكوي للداعية كمكوّن أساس، لا يقل أهمية عن التحصيل العلمي، مع ربط ذلك بنصوص قرآنية مفسّرة، تظهر أثره في شخصية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم-.

4. إنشاء مقررات دراسية، تحت عنوان: "التفسير الموضوعي الدعوي" في الجامعات الإسلامية، تتناول محاور، مثل: إعداد الداعية، القيادة القرآنية، خطاب المواجهة، خطاب التثبيت.

5. حثّ الباحثين على دراسة الخطاب القرآني دراسة موضوعية، من زوايا تكوينية، كخطاب إعداد النبي، خطاب مواجهة الأعداء، خطاب التربية الإيمانية، لما فيها من ثراء تفسيري وفائدة دعوية.

6. توجيه المؤسسات الدعوية إلى الإفادة من المنهج القرآني في التدريب والتأهيل، بدل الاقتصار على النماذج الإدارية أو البشرية المعاصرة المنفصلة عن الروح القرآنية.

المراجع:

القرآن الكريم.

1. ابن الفراء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف، 458هـ، العدة في أصول الفقه، تحقيق: د أحمد بن علي بن سير المباركي، ط/2 1410هـ.
2. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ١٩٩٥م (١٤١٦هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط/٣.
3. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت.
4. ابن عاشور، محمد الطاهر، ١٩٨٤م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس.
5. ابن قيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، 751هـ، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، ط/ 27.
6. ابن قيم، محمد بن أبي بكر، ١٩٩٦م (١٤١٦هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٣.
7. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ١٩٩٩م (١٤١٩هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط/١.
8. ابن منظور، محمد بن مكرم، ١٩٩٤م (١٤١٤هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/٣.
9. أبو السعود، محمد بن محمد، 982هـ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث، بيروت.
10. البحري، إبراهيم بن عبد الولي، البلاغ المبين في ضوء القرآن الكريم، المجلة العلمية لجامعة إقليم سبأ 2025م، مجلد 8، عدد: 1.
11. البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، (١٤٢٢هـ)، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط/١.
12. الثعلبي، علي بن علي بن محمد، 631هـ، الإحكام في أصول الأحكام، المكتب الإسلامي بيروت.
13. الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم، 741هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1415هـ.
14. الدبيسي، محمد بن مصطفى، السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، رسالة دكتوراه، عين شمس، القاهرة، 1431هـ.

15. الرازي، محمد بن عمر، ٢٠٠٠م (١٤٢٠هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/٣.
16. رسلان، عثمان عبد المعز، 1434هـ، تربية القلب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مؤسسة شروقط/ 3.
17. الزرقاني، محمد عبد العظيم، ١٩٤٥م (١٣٦٤هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
18. الزنداني، عبد المجيد عزيز، 1446هـ، بينات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته، دار الإيمان القاهرة.
19. زيدان، عبد الكريم، 2001م، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، ط/9.
20. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، (١٤٢٠هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/١.
21. السيوطي، جلال الدين، ١٩٧٤م (١٣٩٤هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
22. الشوكاني، محمد بن علي، (١٤١٤هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق – بيروت، ط/١.
23. الصلابي، علي بن محمد محمد، السِّيرةُ النّبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط/7، 1429هـ.
24. الطبري، محمد بن جرير، 310هـ، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/١.
25. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، ط/1.
26. العنزي، عزيز بن فرحان، ٢٠٠٥م (١٤٢٦هـ)، البصيرة في الدعوة إلى الله، دار الإمام مالك، أبو ظبي، ط/١.
27. الغزالي، محمد السقا، 1416هـ، فقه السيرة، دار القلم، دمشق، ط/1.
28. القحطاني، جلوس بنت فرج، 1434هـ، إعداد الداعية في ضوء الكتاب والسنة، جامعة الإمام بن سعود.
29. القطان، مناع بن خليل، (١٤٢١هـ)، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،

ط/٣.
30. قطب، سيد، ١٩٩١م (١٤١٢هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط/١٧.
31. مختار، أحمد، ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط/١.
32. مركز دراسات للدراسات القرآنية، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ط/3، 1436هـ.
33. مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة.
34. المغذوي، عبد الرحيم بن محمد، الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رسالة دكتوراة، مكتبة الملك فهد، 1421هـ.
35. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
36. الوادعي، مقبل بن هادي، 1422هـ، مكتبة ابن تيمية، ط/ 4، 1408هـ.